

صَوَّبَ بِأَمْرٍ مِنْ نَجِيبٍ

فهل من نجيب

لصاحبة الفريضة الأستاذة محمد البشير الأبراهيمي

شيخ علماء الجزائر

معنى هو الذى تفيده الألفاظ والتراكيب ، وينقل بالسامع من خبر إلى خبر ومن وصف إلى وصف ، ومعنى آخر مساوق له ممتد معه ، وهو أن هذا الكلام نفسه قائد ... فيه من القيادة أمرها ونهيا وحزمها وصدقها وواقفها وتوجيهها ومضاؤها وجراتها وجميع خصائصها ، فأفهم من ذلك كله أن القيادة هي صفته الذاتية ، خلقت معه مسترة في روحه ودمه ، ولونتها فطرته السليمة ، وكونتها تربيته الشعبية ، كما أن الإقدام هو صفة الأسد الذاتية التي خلقت معه ؛ فلما أدت قيادته العسكرية رسالتها وبلنت مداها انقلبت قيادة شعبية سماها العرف رياسة ، وماهى - في الحقيقة - بالإمتداد لقيادته العسكرية ، والقائد القوى للخصائص ، في الأمة الكثيرة النقائص ، لا يزال يخرج من حرب إلى حرب ، ويدخل من قتام في قتام

سمت كلمات القائد متمدة رزينة ، فلما لمست فلسطين ظهرت شجيرة حزينة ، فنطق بالصدق ، ولا أصدق من شهادة الميان ، ومحمد نجيب إذا تكلم عن حرب فلسطين ، وصور نكبة فلسطين ، كان الراوية الثقة والضابط العدل . وقد حلل تلك السبب الخالصة ، وعللها باثنتين : قبول الهدنة وفقد السلاح . ثم برأ الشرف المسمى العربى كله من وصمة التخاذل ، ولم يرجع على التخاذل السياسى بين ملوك العرب وساستهم ، ولكن عده لقبول الهدنة أحد سببى النكبة ، أبلغ من التصريح ، فى الاتهام والتجريح . فإن الرايين بالهدنة هم رؤساء الحكومات العربية من ملوك وساسة لاقادة الجيوش .

كانت كلمات القائد البطل عن فلسطين تحس نفسى - وهو يلقيها - مسة الكهرباء فتحرق ولا تضىء ، لأننى - يشهد الله - كنت وما زلت من أشد الناس اهتماما بالمحادثة ، ثم عن أشد هم التبعا بالكارثة ؛ فإذا فأتى - لشقوى - أن أشارك فى وقائعها بجسمى ، فلم يفتنى أن أشارك فيها بقللى ؛ فكنت مقالات غارية المعنى قاسية الألفاظ تكاد ترسل

حضرت قبل أسابيع حفلة تكريم للقائد الشعبى العظيم محمد نجيب ، أفتابها جمية من الجميات العاملة للإسلام ، وسمعت خطبا عادية فى المعنى الذى أقيمت له الحفلة ، وسمعت قطعة من الشعر ، أشهد أنه شرعى صادق فى تصوراتهِ وتصويراته ، وأنه مس مكامن الإحساس منى حينما مس فلسطين ، وكأنا غمز من قلبي جرحا مندلا على عظم . ثم سمعت فى الأخير كلمة القائد البطل ، وكان أقلها عن مصر وحركة الجيش وأسبابها وأهدافها ، وأكثرها عن فلسطين وحربها وحالة أهلها المشردين .

وأقول : القائد ، ولا أقول : الرئيس ؛ لأننى كنت أسمع كلام قائد لا كلام رئيس ، وكنت أسمع كلاما فهمه بمعنيين :

ترهب بها عين الرقيب الذى لا يسجد ولا ينام « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شىء عليم »

أما بعد

فهذه هي مبادئ النهضة لمن يريد أن يفهم النهضة ؛ وهي مبادئ الإسلام لمن يريد أن يدين بالإسلام ، فابنوا حياتكم عليها ، واتخذوا « الإيمان بالله وشرعه » جنتها ، يحفظها الله لكم ويرعاها ، ويمكن لكم فى الأرض ، ويجعلكم أمة ويجعلكم الوارثين « والمصر إن الإنسان لبق خبير ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ؛ وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »

محمد ستوتون

ويبتزغ من تخاذل العرب ، لو كما وحكومات وسادة وكبراء ،
وشعوبا حتى ضاعت فلسطين وجاع أهلها ، وتنتزغ من حالة
المسلمين المنفلين الذين ما زالوا - وهم ذوو عدد -

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة

ومن إساءة أهل سوء إحسانا

وما زالوا يطلبون الصدقة بمن سلبهم ، وما زالوا يفرعون
كلما لطمهم اليهود إلى الاحتجاج . وما زالوا يطرقون أبواب
هذا الهيكل الخرب الذي يسمى جمعية الأمم المتحدة .

أنا لا أتحدث عن قلوب السامعين ومواقع كلام القائد
منها . ولا أملك لها أن تكون خلية أو شجيرة ؛ وإنما
أتحدث عن قلبي . فوالذي خلق القلوب مضنا سوداء وبث
فيها شعلا من النور ، لكأنما كانت تلك الكلمات على قلبي
نبالا تتال على هدف ، ونصالا تتوالى على جريح . بالمعجب
العاجب ! أفيؤمن المسلم بأن المسجد الأقصى هو قبلته الأولى
وأنه ثالث المساجد التي تشد إليها الرحال ، وأنه كان في
ليلة من الدهر سلم الأرض إلى السماء ، ومطار البشرية المتمثلة
في محمد ، إلى الملكية المتمثلة في الملائ الأعلى . أفيؤمن بذلك
كله ثم لا يقدم لحماية هذا الحرم وجعله آمنا - مهجته وماله ؟
إن فلسطين إرث النبوة الخاتمة ، من النبوات المتقادمة ،
نقد فيه عمر وصية الإسلام ، وحرره أبو عبيدة وأصحابه في
الأولين من رق الرومان ورجس الأوثان ، وأدت وقائع
البرموك وأجنادين شهادتها على استحقاتنا لهذا الإرث ؛
ثم طهره صلاح الدين وجيشه في الآخرين من أدران
الصليبيين . وكانت وقائع حطين وعكا وغيرها تركية نذك
الشهادة باستحقاقنا لهذا الإرث واقتدارنا على حمايته .

إن أعمال أجدادنا في فتح فلسطين وإرثها وحمايتها هي
وصية صريحة لنا بالمحافظة عليها وحجة ناطقة علينا إن نحن
قصرنا فيها أو فرطنا في جنبها . فيا لتراث نبوي حماه
الأسلاف الصالحون ، وأضاعه الأخلاف المقربون !
ما ضاع فلسطين إلا العرب ، وقد جاءتهم النذر فتهربوا

شواظا من نار ونحاسا على التسيبين في تلك الهزيمة المنكرة ،
بغير أسبابها المعقولة عند الناس ، ولكن بسبب لا يستسيغه
عقل عاقل وهو قبول الهدنة ... لذلك كانت كلمات القائد
تفيض من نفسه الجريحة وكأنما تفور من نفس . حتى إذا
سكت عن ساسة العرب أحسست بانفعال كنت أعنى أن
أسكنه بشهادة حق من القائد الصادق عليهم تؤيد عقيدتي
فيهم ؛ فإن شهادة الحق تؤيد الحق حتى لكأنه حقان

وتكلم القائد البطل عن أولئك البائسين الذين أخرجوا
من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : وطننا فلسطين ، والذين
نسبهم مشردين ونحن شردناهم بما كسبت أيدينا ، ووصف
وصف المايشين ما يلقونه من شقاء وما يتجرعونه من
غصص ؛ وبدأ صوته يرتفع ويهدج وعيناه تفرورقان بالدموع
فتشهد بأنه يغالب أسى كينا وهما دفينا . وكانت الجمل
العبقرية التي تساوى الدم الذي سال من جسمه على ثرى
فلسطين هي قوله : « كيف نلتذ بالطعام ، وننعم باللباس
والدفء ، وإن إخواننا ليتضورون من الجوع ، ويفترشون
الغبراء ؟ لماذا لا نصوم يوما من الأسبوع عن اللحم .
أو أسبوعا من الشهر عن هنة من هذه الكماليات .
ثم نرصد ثمنها لإطعام إخواننا الفلسطينيين وكسوتهم ؟
إن الإمساك عن اللحم يوما من الأسبوع أو عن الكماليات
أسبوعا من الشهر لا تمتتنا ولكنها تحمي إخواننا » .
ثم رمى السامعين بالأبدة التي ظننت أن الجباه تندى لها عرقا ،
إن لم تنخلع القلوب منها فرقا ، وهي قوله « إن من المار
أن نطلب لهم الحياة ممن أماتهم ، ونسأل لهم القوت من
الدول الساتية التي حكمت عليهم باوت جوعا ، وحكمت
علينا بالأنحاء ذلا ومهانة » .

حقائق جلاها القائد على مئات من السامعين ، ومانهم
إلا من له نباهة وذكر ومقام . جلاها في جمل حاكية ،
تحتمها معان باكية ؛ وشرحها الواقي ينتزع مما يتصوره
التصورون . ويمسوه المصورون من حال أولئك البائسين .

لا تطمئن عليها الحياة ، فكل ما في أحزاننا عويل وبكاء ، وكل ما في أفراحنا تصدبة ومكاء ، وكل استجابتنا لداعي الحق نطق الحناجر بهتاف ، والثقاء الأبدى على تصفيق ونبتت بعد تلك الكلمة التي لم تعها أذن واعية ، فكرة قطر الرحمة . وهي فكرة جميلة ، صحبها الزم فكانت جليلة . ورافقها التنفيذ فكانت نبيلة . وحيا مصر ولقى أهلها نضرة ، كما كما أرضها خضرة ؛ ولكن قطر الرحمة ما هي إلا قطر من الرحمة . والمشدون أصبحوا بقعة إنسانية عطشى لا ترويه إلا الروائح والنوادي من سحب الخير . وأين الفكرة التي تختص بمصر من الفكرة التي تم العالم الإسلامي ؟ إن فكرة « الصوم » لو تمت وانتشرت وصحت المزائم على جعلها عادة وموسماً لم تقف عند استحياء المشردين وكفكفة دموعهم ، بل كانت تنسل الخزي وترحض المار ، وتسبح جيشاً لاسترداد فلسطين

أيها الرب : هاهم أولاء إخوانك المشردون على غلوة سهم منك ، لو سمعتم لسمعتم أنينهم من الألم يتردد ، وحينهم إلى الديار يتجدد ، ودعاهم إلى الله يرتفع على كل من أضعهم وأجاعهم

إنهم إخوانكم . وإيها أمراضكم . والقراية موضع الثواب والعقاب عند الله . والعرض محل المدح والذم عند الناس . وإنهم انسلخوا من الزمان ، فلا ماضى ولا حال ولا مستقبل . فهل تأمنون أن يبقى أبناؤهم الناشئون في هذه الحالة على الإسلام والمروبة ؟ وهل تأمنون أن يطول عليهم الأمد ، ويستحکم فيهم اليأس منهم ، فيسيامون اليهود على العبودية المؤبدة ؟

أيها العرب : ساء مثلاً من أفهمكم من معاني المروبة أنها نسبة إلى جنس ، واعتراء إلى جد ، والتصاق برقعة من لأرض . فجاجلوا هذا السطر الخاطى بانغو والشطب . وخذوا المروبة على أنها ليست جلدة تمر أو تصفر ، ولا بلدة تفر أو تخضر . وليست متاعاً مايرث الوارثون .

بها ، ثم حن الأمر وهم غارون فاندھشوا ، ثم وقعت الواقعة فأبلسوا ، وعمد خطباؤهم إلى الخطب ينمقونها ، وشعراؤهم إلى القوائد يزوقونها ، وساستهم إلى الدعاوى يلققونها ، وعامتهم إلى الخرافات يصدقونها ، بينما عمد ملوكهم إلى الأمداد يعوقونها ، وإلى الأهواء ينفقونها ، وعمد خصومهم اليهود إلى النيات يحققونها ، وإلى اليهود يمزقونها ، وقضى الأمر وأوسعناهم نبيا وراحوا بالإبل ا وبعد أن كنا نقول : نحن أهل فلسطين ، أصبحنا نقول ما قالته الجرهمية في مكة : بلى نحن كنا أهلها ! ولا أدري كيف تنتصر أمة نقطت بسوء صنيعها أمما ، ثم تدلت في الذل حتى صارت تطلب الرحمة من معذبها ، وتعطى الدية لثانها ، ثم ارتكست في السقوط حتى أصبح نصف ملوكها صبيانا ، وأكثر أدلائها عيانا .

مضت على كلمات القائد البطل أسابيع ، وأنا أتحمس ونعها في النفوس ، وأترقب ثمرتها ، من صوم المسلمين عن الطعام يوما في الأسبوع أو هجرم لبعض الكليات أسبوعا في الشهر ورسد أمانها لدفع النوازل عن مشردى فلسطين ، أو لغير ذلك مما تتفتق عنه العقول من أفكار ، وتتمخض عنه الهمم من آثار ، فلم يظهر لها أثر إلا تلك الهزة التي حركت الأيدي للتصفيق ، ورسمت التأثر على الوجوه ، ونشرت شيئا من التهلل على الأسارير ، ثم لاشي !

إن تلك الكلمة العبقرية ليست كلمة من الكلام — وإنما هي فكرة عبرت عنها ألفاظ ، ومبدأ ترجمته عبارات ، ولو كانت نفوسنا — معشر سامعينا — حية مستجيبة لفهمنا الكلمة بهذا المعنى ، ولخرجنا من الحفلة منادين بها ، داعين إليها ، شارحين لراميها ، ناشرين لها في العالم الإسلامي ، بادئين بأنفسنا في تنفيذها ، ولكنا قوم بيننا أمرنا على اللب والابو ، والخطأ والسهو ، لاعلى الجد والصرامة ، والمرة والكرامة ، واطمأننا إلى عادة